شرح الأربعين النووية

الحديث السادس والعشرون

كُلُّ سُلامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ

اللقاء التاسع والعشرون

الحديث السادس والعشرون:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: "كُلُّ سُلامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلُّ يومٍ تَطْلُعُ فِيْهِ الشَّمْسُ: تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِيْنُ الرَّجُلَ في دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُ لَهُ عَلَيْهَا أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيْهَا إِلَى الصَّلاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيْطُ الأَذى عَنِ الطَّرِيْقِ صَدَقَةٌ" رواه البخاري ومسلم.

ترجمة الراوي:

أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، إمام العلمِ، وإمام الحفظِ، وإمام الجهادِ، والصدَقةِ والصيامِ والقيامِ، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكر، سبق الحديث عن سيرته العطرة في الأحاديث السابقة فمن ترغب تعود لقناة حامل المسك وتجد هناك المادة مكتوبة ومسموعة....

منزلة الحديث:

هذا الحديث حديث عظيم، وقاعدة من قواعد الدين الحنيف؛ إذ يبين أن الأعمال الصالحة لا تقتصر على الإنسان نفسه، بل كل عمل فيه نصح للناس فيه أجر [الجواهر اللؤلؤية شرح الأربعين النووية].

◙ قال ابن العطار رحمه الله: ففي هذا الحديث عِظَمُ فضل صلاة الضحى، وأنها تجزئ عن ذلك كله [شرح الأربعين النووية لابن العطار].

شرح الحديث:

جَعَلَ اللهُ كُلَّ أنواعِ الخَيرِ الذي يَبذُلُه الإنسانُ في حَقِّ نَفْسِه بالعِبادةِ، وفي حَقِّ غيرِه بالمَعروفِ: مِن صَدَقاتِ البَدَنِ وما يَتمتَّعُ به مِنَ الصِّحَّةِ والعافيةِ.

أصلُ الصَّدَقةِ ما يُخرِجُهُ المرءُ مِن مالِهِ مُتطوِّعًا به، ولأنَّ الشَّريعةَ الإسلاميَّةَ جاءتْ باليُسرِ والرَّحمةِ بالنَّاسِ أجمعينَ، لمْ يَجعَلِ اللهُ الصَّدَقةَ حِكرًا على أهْلِ الغِنى ومَن عِندَه فَضلُ مالٍ، بل وسَّعَ بابَ الخَيرِ والبِرّ أمامَ عِبادِهِ؛ لِيَشمَلَ كلَّ مَعروفٍ يَبذُلُه المُسلِمُ.

وفي هذا الحَديثِ يَذكُرُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه على كُلِّ سُلامَى مِنَ النَّاسِ صَدَقةٌ، في كُلِّ يومٍ تَطلُعُ عليه الشَّمسُ...

وفي رواية لمسلم" يصبحُ على كل سُلامَى ابنِ آدمَ صدَقةٌ، فإماطةُ الأذى عنِ الطَّريقِ صدقةٌ، والتَّسليمُ على من لقيتَ صدقةٌ، والأمرُ بالمعروفِ صدقةٌ، والنَّهيُ عنِ المنكرِ صدقةٌ، وَذَكَرَ الصَّلاةَ والصَّومَ والحجَّةَ والتَّسبيحَ والتَّحميدَ والتَّكبيرَ كلُّ ذلِكَ صدقةٌ، ثمَّ قال يُجزئُ أحدَكُم من ذلِكَ رَكْعتا الضُّحى".

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: السلامى هي المفاصل، وقيل: العظام، والمعنى واحد لا يختلف، لأن كل عظم مفصول عن الآخر بفاصل فإنه يختلف عنه في الشكل، وفي القوة، وفي كل الأمور وهذا من تمام قدرة الله عزّ وجل. وجاء في صحيح مسلم أن السلامى ثلاثمائة وستون مفصلاً، هكذا جاء في الحديث، والطب الحديث يوافق هذا – سبحان الله – مما يدل على أن رسالة النبي –ﷺ– حق.

عن أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها– أن النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: "إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةِ مَفْصِلٍ، فَمَنْ كَبَّرَ اللهَ، وَحَمِدَ اللهَ، وَهَلَّلَ اللهَ، وَسَبَّحَ اللهَ، وَاسْتَغْفَرَ اللهَ، وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ شَوْكَةً أَوْ عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ، عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ وَالثَّلَاثِمِائَةِ السُّلَامَى؛ فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ"(أخرجه مسلم).

إذن السُّلامَى: هي المَفاصِلُ، فكُلُّ مَفصِلٍ مِن مَفاصِلِ الإنسانِ عليه صَدَقةٌ للهِ تعالَى، من فِعلِ الطَّاعةِ والخَيرِ كُلَّ يومٍ، وهذه الصَّدَقةُ تَكونُ بتَحَرُّكِها في الطَّاعةِ، واشتِغالِها بالعِبادةِ، فتَركيبُ هذه العِظامِ ومَفاصِلِها مِن أعظَمِ نِعَمِ اللهِ على عَبْدِه، فيَحتاجُ كُلُّ عَظمٍ منها إلى صَدَقةٍ

يَتصَدَّقُ بها ابنُ آدَمَ عنه؛ لِيَكونَ ذلك شُكرًا لِهذه النِّعمةِ، والمُرادُ صَدَقةُ نَدْبٍ وتَرغيبٍ، لا إيجابٍ وإلزامٍ؛ فإنَّه يَكفي في شُكرِ هذه النِّعَمِ أنْ يَأتيَ بالواجِباتِ، ويَجتَنِبَ المُحَرَّماتِ.

ثُمَّ أرشَدَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِبَعضِ وُجوهِ الطَّاعاتِ التي يَتصَدَّقُ بها الإنسانُ عَن مَفاصِلِه، فذَكَرَ أنَّ العَدْلَ بيْنَ اثنَيْنِ -صُلْحًا أو حُكمًا- يَكونُ صَدَقةً، والصُّلحُ خَيرٌ، لكِنْ إنْ عُلِمَ أنَّ الحَقَّ لِأحَدِهما فلا مَيْلَ عنه.

(وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى)، قال الطبري: وإذا حكمتم بين الناس فتكلمتم فقولوا الحق بينهم، واعدلوا وأنصفوا ولا تجوروا، ولو كان الذي يتوجه الحق عليه والحكم، ذا قرابة لكم ولا تحملنكم قرابة قريب أو صداقة صديق حكمتم بينه وبين غيره، أن تقولوا غير الحق فيما احتكم إليكم فيه.

"تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ" ((تَعْدِلُ)) المعنى: عدلك؛ أي: صلحك، ((بَيْنَ اثْنَيْنِ)) متحاكمين أو متخاصمين أو متهاجرين، ((صَدَقَةٌ))؛ أي: منك عليهما؛ لوقايتهما وحفظهما مما يترتب على المنافرة والمنازعة بينهما من قبيح الأقوال والأفعال.

من هداية الله -تعالى- للمؤمنين، ورحمته بهم، أن وحد كلمتهم بالإسلام، وجمع قلوبهم بالإيمان، فلمّ به شعثهم، وأزال ضغائنهم، وشفى صدورهم، فكانوا إخوة في دين الله -تعالى- متحابين متجالسين متباذلين، كالبنيان يشد بعضه بعضا (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) [آل عمران:103] وفي الآية الأخرى (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [الأنفال:63] .

وما من سبيل يزيد من لُحمَة المؤمنين، ويؤدي إلى ترابطهم وتآلفهم إلا جاءت به الشريعة وجوبا أو ندبا، وما من طريق تؤدي إلى التفرق والاختلاف، والضغينة والشحناء، والقطيعة والبغضاء إلا حرمتها الشريعة، وأوصدت طرقها، وسدت سبلها؛ ولذلك أمرت الشريعة بالبر والصلة، وحرمت العقوق والقطيعة.

وقد شدد النبي -ﷺ- على أهمية الإصلاح وأمر بالمبادرة إليه حتى لا يتفاقم الخلاف؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: "تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ

فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا". والمعنى أخّروا هذين حتى يرجعا إلى الصلح والمودة.

وأمرت الشريعة بإفشاء السلام، وإطعام الطعام، والحب في الله –تعالى–، والزيارة فيه، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس، وعيادة المريض، واتباع الجنازة، وحفظ حقوق الأهل والقرابة والجيران، وجعلت للمسلم على أخيه المسلم حقوقا يحفظها له، فيؤجر عليها، وأرشدت إلى كثير من الآداب والأخلاق التي من شأنها أن تقوي الروابط، وتديم الألفة، وتزيد في المودة والمحبة بين الناس.

وحرمت الشريعة الهمز واللمز والسخرية، والغيبة والنميمة، والقذف والبهتان، والشتم والسباب، والكذب والمراء، والفجور والجدال، وغير ذلك من الأقوال والأفعال التي من شأنها أن تسبب الضغائن والخصومات، وتؤجج نيران الأحقاد والعداوات.

ومع كل هذه الاحترازات الشرعية التي يربي الإسلام أهله عليها فإن الإنسان وهو يعيش صخب الحياة ومشكلاتها لا بد أن يعتريه غضب وسهو وغفلة فيعتدي على أخيه بقول أو فعل في حال ضعف منه عن كبح جماح نفسه، وتسكين غضبه، وحتى لا يتسبب هذا الخطأ منه في الخصومة والقطيعة التي يغذيها الشيطان، وينفخ في نارها؛ رتب الإسلام أجورا عظيمة على الحلم وكظم الغيظ والعفو عن الناس، قال تعالى: (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)[آل عمران:133-134] وأُمر المعتدي برفع ظلمه، والرجوع عن خطئه، والاعتذار لمن وقع عليه اعتداؤه.

إنها تشريعات ربانية عظيمة جليلة لو أخذ الناس بها لما وجد الشيطان عليهم سبيلا، ولما حلَّت في أوساطهم القطيعة والخصومة، ولكن الشيطان وإن أيس أن يعبده المصلون فإنه لم ييأس من التحريش فيما بينهم، وبث الفرقة والاختلاف فيهم، والنيل منهم بالعداوة والخصومة؛ ولذا فهو يزين للمعتدي سوء عمله، وإصراره على خطئه، وتماديه في جهله، ويحرض المعتدى عليه على الانتصار لنفسه، وأخذ حقه، والنيل ممن اعتدى عليه وعدم العفو عنه، وحينئذ تدب الخصومة والفرقة التي تتولد عنها الضغينة والقطيعة، وقد يصل ذلك إلى الاعتداء والاقتتال.

من أجل ذلك شرع الإسلام إصلاح ذات البين، وأمر الله –تعالى– به، وأباح للمصلحين ما حرَّم على غيرهم، فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا إذا كان غرض المناجي لأحدهما الإصلاح بينهما، (لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)[النساء:114].

وقد يحتاج المصلح إلى بعض الكذب ليُقَرِّب بين المتخاصمين، ويزيل ما بينهما من الضغينة، ويهيئ قلبيهما لقبول الصلح والعفو؛ وذلك كأن يخبر أحد الخصمين بأن صاحبه لا يذكره إلا بخير، وأنه متشوف لمصالحته، حريص على قربه ومودته مع عدم حقيقة ذلك، أو يسأله أحد الخصمين إن كان خصمه ذكره بسوء عنده فينفي ذلك مع وقوعه منه، وما قَصَدَ بكذبه إلا إطفاء نار الخصومة، وإزالة أسباب الشحناء، فَرُخِّص له في ذلك مع قبح الكذب، وعموم المنع منه؛ قال رسول الله -ﷺ-: "ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فَيَنْمِي خيرا أو يقول خيرا" متفق عليه.

بل إن المصلح بين الخصمين منهي عن الصدق إذا كان صدقه يشعل نار الفتنة بينهما، ويزيد فرقتهما.

والذي ينقل الكلام بين الناس على وجه الإفساد يسمى نماما ولو كان صادقا فيما ينقل، والنميمة من كبائر الذنوب، قال-ﷺ-: "لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ" صحيح مسلم.

والأمر بإصلاح ذات البين جاء في قول الله -تعالى-: (فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) [الأنفال:1] وفي الآية الأخرى (إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) [الحجرات:10] وفي آية ثالثة (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ) [النساء:128].

والاشتغال بالصلح بين المتخاصمين أفضل من الاشتغال بنوافل العبادات؛ لما في الإصلاح بين الناس من النفع المتعدي الذي يكون سببا في وصل أرحام قطعت، وزيارة إخوان هُجِروا، ونظافة القلوب مما علق بها من أدران الحقد والكراهية، وذلك يؤدي إلى متانة المجتمع وقوته بتآلف أفراده وتماسكهم، وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: "إِنَّ أَفْضَلَ الصَّدَقَةِ إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ". رواه الطبراني والبزار وهو حديث صحيح لغيره كما قاله الألباني -رحمه الله-.

قال الشيخ السعدي: "والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة، والمصلح لا بد أن يصلح الله سعيه وعمله.

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ"؟ قَالُوا: بَلَى قَالَ: "صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ؛ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ". وفي رواية أَنَّهُ قَالَ: "هِيَ الْحَالِقَةُ، لاَ أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ". رواه الترمذي وصححه الألباني.

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي –رحمه الله– –مثنياً على المصلحين–: "ألا وإنَّ المصلحين بين عباد الله لهم الرُّتب السامية، والمحل الأعلى، وقد حازوا الشرفَ والأجور الكثيرة ورضا المولى، يأتون إلى المتباعدين فيقربونهم، وإلى الذين فرقتهم الأغراض الدنيئة فيؤلفون بين قلوبهم ويجمعونهم؛ فلله درهم ما أفضل أعمالهم، وما أرفع مكانهم وأكمل أحوالهم؛ فكم حصل بسعيهم المشكور من خيرات وبركات، وكم اندفع بعملهم المبرور من شرورٍ ومفاسدَ وآفات، وكم قمعوا من ضغائنَ وإحن، وكم أخمدوا بإصلاحهم ولطفهم من شرورٍ وفتن؛ فيا فوزهم بمكارم الأخلاق، ويا سعادتهم عند لقاء الملك الخلاق، ويا فلاحهم إذا أُكرموا بجنات النعيم، ووُقوا من عذاب الجحيم فتمت لهم حينئذٍ العيشة الرضية في جنة عالية قطوفها دانية، وقيل لهم كلوا واشربوا بما أسلفتم في الأيام الخالية".

"وَتُعِيْنُ الرَّجُلَ في دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُ لَهُ عَلَيْهَا أَو تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ"

ومنها: أنْ يُعينَ أخاه على رُكوبِ دابَّتِه وغيرِها مِن وَسائِلِ النَّقلِ إنْ لم يَستَطِعِ الرُّكوبَ بنَفْسِه، أو يُعينَه بوَضعِ مَتاعِه عليها، فتلك صَدَقةٌ، والمَتاعُ هو: ما يُتمَتَّعُ به في السَّفَرِ مِن طَعامٍ وشَرابٍ وغَيرِهما، والمُرادُ بالأُخُوَّةِ هنا الدِّينيَّةُ لا النَّسَبيَّةُ؛ فالمُسلِمُ أخو المُسلِمِ، يَرجو له مِنَ الخَيرِ ما يَرجوه لِنَفسِه، فيَبذُلُ المُسلِمونَ بَعضُهم لِبَعضٍ كُلَّ أنواعِ المَعروفِ.

يجب علينا أن نُحْسِن إلى الناس وأن نَنْفَعَهُم؛ فقد قال النبي –ﷺ–: "أحبُّ الناسِ إلى اللهِ أنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وأحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ –عزَّ وجلَّ– سُرُورٌ يدْخِلُهُ على مسلم"(صححه الألباني).

وأفضَلُ النَّاسِ مَا بين الورَىٰ رجلٌ *** تُقضَىٰ علىٰ يدهِ للنَّاسِ حَاجاتُ

وقال –ﷺ–: (كُلُّ سُلامَى عليه صَدَقَةٌ، كُلَّ يَومٍ، يُعِينُ الرَّجُلَ في دابَّتِهِ، يُحامِلُهُ عليها، أوْ يَرْفَعُ عليها مَتاعَهُ صَدَقَةٌ، والكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ، وكُلُّ خَطْوَةٍ يَمْشِيها إلى الصَّلاةِ صَدَقَةٌ، ودَلُّ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ)صحيح البخاري.

وكل هذا من باب الحض على التعاون والتناصر وقال: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى) وقال –ﷺ–: (المُؤمِنَ للمؤمنِ كالبُنْيانِ يشدُّ بَعضُهُ بعضًا) صحيح الترمذي وقال –ﷺ–: (واللهُ في عونِ العبدِ ما كان العبدُ في عونِ أخيه) صحيح ابن حبان.

ومِنَ الصَّدَقاتِ أيضًا: الكَلِمةُ الطَّيِّبةُ، سَواءٌ كانت طَيِّبةً في حَقِّ اللهِ تعالَى، كالتَّسبيحِ والتَّكبيرِ والتَّهليلِ، أو في حَقِّ النَّاسِ، كحُسنِ الخُلُقِ؛ فإنَّها صَدَقةٌ.

الكلمةُ عنوان المرءِ، تُتَرجِم عن مُستَودعاتِ صَدره، وتبرهِن على مكنوناتِ قَلبِه، وتدَلِّل على أصله وعقلِه، وتنبئ عن إيمانه أو نفاقه.

وقد قيل: فمُ العاقِل ملجَم، إذا همَّ بالكلام أحجَم، وفَم الجاهِلِ مطلَق، كلّ ما شاء أطلَق.

والعاقِلُ من لزِم الصمت إلا عن حقٍّ يوضِحه، أو باطلٍ يَدحضه، أو خيرٍ ينشُرُه، أو علمٍ يذكره، أو فضلٍ يشكره، فعن أبي هريرةَ -رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله -ﷺ-: "مَن كان يؤمِن بالله واليوم الآخرِ فليقل خيرًا أو ليصمُت" متفق عليه.

وبِتركِ الفضول تكمُل العقول، والخَرسُ خيرٌ من التفوُّه بالباطل، والبكمُ خيرٌ مِنَ النّطقِ بالكذِب والزّور، وشرّ الناس مائِلٌ بمقاله مميلٌ بلسانِه مُبطِل بكلامِه، وشرّ الكلام ما خالَفَ كتابَ الله وسنّةَ رسوله -ﷺ- ممّا تنبو عن قبولِه الطِّباع، وتتجافى عن استِماعه الأسماع.

عثراتُ القولِ طريقُ الندَم، والمنطِق الفاسِد الذي لا نِظام له ولا خِطام عنوانُ الحرمان ودليل الخذلان، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: "إنَّ العبدَ ليتكلَّم بالكلمةِ ما يتبيَّن فيها يزِلّ بها في النارِ أبعدَ ما بين المشرق والمغرب" متفق عليه، وعند الترمذيّ: "إنَّ الرجل ليتكلَّم بالكلمةِ لا يرى بها بأسًا يهوِي بها سبعينَ خريفًا في النار"، وعن بلال بن الحارث -رضي الله عنه- قال: سمعتُ رسول الله -ﷺ- يقول: "إنّ أحدَكم ليتكلَّم بالكلمة من رضوان الله، ما يظنّ أن تبلغَ ما بلغت، فيكتب الله له بها رضوانَه إلى يوم يلقاه، وإنّ أحدَكم ليتكلَّم بالكلمة من سخَط الله، ما يظنّ أن تبلغَ ما بلغت، فيكتب الله عليه بها سخطَه إلى يوم يلقاه" أخرجه الترمذي وابن ماجة.

وعن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- قال: قلت: يا رسول الله، وإنّا لمؤاخَذون بما نتكلَّم به؟! فقال: "ثكِلتكَ أمّك يا معاذ! وهل يكُبّ الناسَ في النار على وجوهِهم إلاّ حصائدُ ألسنتهم؟!" أخرجه الترمذي.

الكلمة الطيّبة مغنَم، والكلِمة الخبيثة مأثم، للألفاظِ والكلماتِ دلائلُها ومعانيها التي تحملُ في طيَّاتها الخير فيُجازى عليها الإنسانُ بالإحسان إحسانًا، أو تحملُ في طيَّاتها الشرَّ والفُحْشَ والبذاء فيُجازى عليها بالسيئات المضَاعَفةِ إلى يوم المعاد، وإنَّ لجارحة اللسانِ أعظم الأثرِ في حياةِ المسلمِ دينًا ودنيا، ربطَ اللهُ عليها الفلاحَ، وعلّقَ عليها السعادةَ أو الشقاوة في العاجلِ والآجلِ، ورتَّبَ عليها الجزاءَ والعقابَ.

بكلمةٍ واحدةٍ يدخلُ العبدُ في الدين والملَّة؛ ألا وهي كلمةُ التوحيدِ الخالصِ: "لا إله إلاّ الله محمدٌ رسولُ الله"، وبكلمةٍ واحدةٍ يتبوأُ العبدُ في الجنة "غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ"، وبكلمةٍ أُخرى يزلُّ العبدُ في النار أبعدَ ممّا بين المشرق والمغرب! ولَرُبَّ كلمةٍ أوردت صاحبَها الموارِدَ، فندمَ عليها ولاتَ ساعةَ مندم!

إنَّ الكلمات هي الترجمانُ المعبِّرُ عن مستودعات الضمائر، والكاشفُ عن مكنوناتِ السرائرِ، فإذا أردت أن تستدل على ما في قلب الإنسان فانظر إلى كلماته وألفاظه، فإنَّها الدليل على ما يكنُّه في قلبه من خير أو شرٍّ، شاء أم أبى، قال الإمام يحيى بن معاذٍ التَّابعيُّ: "القلوب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها، فانظر إلى الرجل حين يتكلَّم، فإنَّ لسانه يغترف لك مما في قلبه".

الكلمات التي تنطق بها الألسن، وتتحرك بها الشفاه، لها شأنٌ، وأي شأن! فكم من كلمة أفرحت وأخرى أحزنت، وكم من كلمة فرقت وأخرى جمعت، وكم من كلمة أقامت وغيرها هدمت، وكم من كلمة أضحكت وأخرى أبكت، وكم من كلمة انشرح لها الصدر وأنس بها الفؤاد وأحس بسببها سعة الدنيا وأخرى انقبضت لها النفس واستوحشها القلب وألقت قائلها أو سامعها في ضيق أو ضنك، فضاقت عليه الدنيا على رحابتها والأرض على سعتها! وكم من كلمة واست جروحاً وأخرى نكأت وأحدثت حروقاً!

قال العلاَّمةُ ابنُ القيِّم الجوزيَّة –رحمه الله– من أنَّ الإنسان يهون عليه التحفُّظُ والاحتراز عن كثيرٍ من أفعال الحرام، من الظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر وغير ذلك، ويصعب عليه التحفُّظ من حركة لسانه؛ حتَّى إنَّك لترى الرجل يُشار إليه بالدين والعبادة والزهد ونحوها من صفات الخير ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ويتقلَّبُ في المحرمَّات، لا يبالي بما يقول، يتكلَّم بالكلمات من سخط الله –تعالى– لا يلقي لها بالاً، يهوي بالكلمة الواحدة في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب، والله المستعان.

ولأجل هذا كان من أولى الاهتمامات في حياة المسلم حفظُ لسانه إلاّ من الخير، وإحسان كلامه، وإطابتُهُ، وحفظُهُ عَنْ قَوْلِ الشَّرِّ.

وإذا أنعم اللهُ –سبحانه وتعالى– على العبد بصدق اللهجة، وطيب الحديث، وجمال المنطق؛ شَرُفَ قدرُهُ، وحُمِدت سيرتُهُ، وحَسُنَت عاقبتُهُ، فملكَ قلوبَ الناس، وأمنوه على أقوالِهم ووصاياهم وأماناتِهم.

من صَلحَ منطقُ لسانه وطاب ظهرَ ذلك على سائرِ عملهِ، فأكسبَه حُسْنًا وأجرًا وقبولاً، ومن فسَد منطقُهُ وخَبُثَ انعكس أثرُه على سائر عمله.

الكلامُ هو حصادُ اللسان، ولذا كان لِزَامًا على المرءِ العاقل أن يكون كلامُه فيما يعودُ عليه بالنفع ويُجنّبه الضّررَ، وأن يحترسَ من زَلَلِهِ، وأن يحذرَ من فضولِه بالإمساكِ عن كثيرِه والإقلالِ منه إلاَّ ما كان في طاعة الله –سبحانه– من تهليلٍ وتحميدٍ وذكرٍ وتسبيحٍ ودعاءٍ واستغفارٍ؛ فإنَّ الإكثارَ منه هو النجاةُ.

جاءَ أعرابيٌّ إلى النبيّ –ﷺ– فقال: دُلَّني على عَملٍ يُدخلُني الجَنَّةَ، قَالَ: "أَطْعِمِ الجَائعَ، وَاسْقِ الظَمآنَ، وأمُر بالمعروفِ، وَانْهَ عن المنكرِ، فَإنْ لَمْ تُطِق فَكُفَّ لِسَانَكَ إلاَّ مِنْ خَيْرٍ" رواه ابنُ أبي الدنيا بإسنادٍ جيّدٍ.

قال –ﷺ–: "اتَّقوا النارَ وَلَو بِشِقّ تَمْرَةٍ، فَمَن لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيّبَةٍ" متفقٌ عليه، وعن أبي المقدامِ عن أبيه عن جدّه قال: قلتُ للنبيّ –ﷺ–: أخبرني بشيءٍ يوجبُ الجنةَ، قال: "عَليكَ بِحُسْنِ الكَلاَمِ، وَبَذْلِ الطَّعَامِ" رواه البخاري.

"وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلاةِ صَدَقَةٌ" ومنها أيضًا: كُلُّ خُطوةٍ يَمشيها العَبدُ إلى الصَّلاةِ، سواءٌ بَعُدَتِ المَسافةُ أو قَصُرتْ.

قال–ﷺ–: " مَن غَدَا إلى المَسْجِدِ ورَاحَ، أعَدَّ اللَّهُ له نُزُلَهُ مِنَ الجَنَّةِ كُلَّما غَدَا أوْ رَاحَ" صحيح البخاري

والمعنى: أنَّ مَن اعتادَ الذَّهابَ إلى المساجِدِ فإنَّ اللهَ تعالَى يُعِدُّ له مَنزلَه ومَكانَه وضِيافتَه مِن الجنَّةِ كلَّما ذهَبَ إلى المسجدِ، فيكونُ ذَهابُه سَببًا في إعدادِ مَنزِلِه في الجنَّةِ. الدرر السنية

عن النبيّ –ﷺ– قال: "إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ وَأَتَى الْمَسْجِدَ لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ خَطِيئَةً حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ"صحيح البخاري

فلْنُبْشِرْ بخيرٍ ونحنُ نمشي إلى الصّلاةِ بالْفَضْلِ الْعَظِيمِ، فكَيْف إذَا كَانَ معَهُ ظُلْمَةٌ فِي الطَّريقِ، أوْ بَرْدٌ قارِسٌ؛ فهذا مِمّا يُعْظِمُ الأجْرَ، رَوى مسلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه– أَنَّ رَسُولَ اللهِ –ﷺ– قَالَ: "أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟"، قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ!، قَالَ: "إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ".

ومنَ الصَّدَقاتِ ❁"وَتُمِيْطُ الأَذى عَنِ الطَّرِيْقِ صَدَقَةٌ": مَحوُ الأذى وإزالتُه عنِ الطَّريقِ، وهو كُلُّ ما يُؤذي المارَّةَ، فإذا أُميطَ عن طَريقِهم فإنَّه صَدَقةٌ.

ومن الأذى في الطريق كلُّ شيء يؤذي من النجاسة والقذر، أو مما يُعيق السيرَ، مثل طَفْح ما يُنجِّس البدن والملابس، ومثل أن يعترض الطريق عائق من شجر أو حجر، فالمتعمد لوضع الأذى في الطريق آثِم فَعَلَ محرَّمًا، وأما مَنْ يزيل ذلك الأذى ويجتهد في إزالته، فإنَّه يُؤجَرُ على حُسْن صنيعه، ويَلْقى ثمرةَ عمله الصالح في الآخرة، قال النبي -ﷺ-: "مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ، فَقَالَ: وَاللهِ لَأُنَحِّيَنَّ هَذَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ" أخرجه مسلم

وقال -ﷺ-: "لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ، فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ، كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ" أخرجه مسلم

وإنَّ من الأذى ما يؤذي الناسَ في طرقاتهم وأماكن جلوسهم، فتجدون من الناس مَنْ يؤذون غيرَهم عند جلوسهم في الطرقات؛ لعدم إعطائهم حقَّ الطريق الذي بيَّنه النبي -ﷺ- في قوله: "إيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ"، فَقَالُوا: ما لَنَا بُدٌّ، إنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ: "فَإِذَا أَبَيْتُمْ إلَّا المَجَالِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا" قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟ قَالَ: "غَضُّ البَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ" أخرجه البخاري

وفي حَديثِ مُسلِمٍ الذي يَرويه أبو ذَرٍّ رَضيَ اللهُ عنه قال النَّبيُّ -ﷺ-: «ويُجزِئُ مِن ذلك رَكعَتانِ يَركَعُهما مِنَ الضُّحى»، أي: يَكفي مِمَّا وَجَبَ على السُّلامَى مِنَ الصَّدَقاتِ صَلاةُ الضُّحَى، رَكعَتانِ؛ لِأنَّ الصَّلاةَ عَمَلٌ بجَميعِ أعضاءِ البَدَنِ، وتَشمَلُ جَميعَ ما ذُكِرَ مِنَ الصَّدَقاتِ وغَيرِها.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: أنه صح عن النبي -ﷺ- أنه يجزئ من ذلك - أي بدلاً عنه، لأن (من) هنا بدليّة بمعنى بدل ذلك - ركعتان يركعهما من الضحى، فإذا ركعت ركعتين من الضحى صار الباقي نفلاً وتطوعاً. ويؤخذ من هذه الرواية: أنه ينبغي للإنسان أن يداوم على ركعتي الضحى، وجه ذلك: أنها تأتي بدلاً عن هذه الصدقات أي بدلاً عن ثلاثمائة وستين صدقة، وهذا القول هو الراجح: أنه تسن المداومة على ركعتي الضحى.

ووقتها: من ارتفاع الشمس قيد رمح في رأي العين، إلى قبيل الزوال يعني بعد طلوع الشمس بنحو ثلث ساعة إلى قبيل الزوال بعشر أو خمس دقائق، وآخر الوقت أفضل.

وأقلها ركعتان وأكثرها لا حد له، فصلِّ ما شئت فأنت على خير.

🗏ويَا سعادَةَ وفَلاحَ مَنْ كانت خُطُواتُه لإِصْلاحِ ذاتِ الْبَيْنِ، وجَمْعِ الكَلِمَةِ، وإِطْعامِ الْفقيرِ والمسكينِ، والشَّفاعَةِ الحسَنَةِ، وطلَبِ الْعِلْمِ، وصِلَةِ الرَّحِمِ، وزِيارَةِ المرِيضِ، والْقِيَامِ بِحَقِّ الصَّداقَةِ والصِّلَةِ، قال –تعالى-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[يس: ١٢]؛ ذَكر سبحانه ما قدَّموا مِن الأَعْمالِ الَّتي قد تكُونُ معنويَّةً لَا أثَرَ لها، ثُم ثنَّى بالأَعْمالِ الحسِّيَّةِ الَّتي تترُكُ أثرًا فقَالَ: ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ ، ثم ثلَّث بكلِّ شيء، فقال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾؛ لنعلم أن الله لا تضيع عنده مثقال ذرة، وأنه كريم رحيم.

🗐 قال قتادة: "لو كان الله –تعالى- مُغفِلًا شيئًا مِن شأنك يا بْن آدمَ، أغْفَل مَا تُعفِي الرِّياحُ مِن هذه الآثارِ، ولكن أحصَى على ابْنِ آدمَ أثَرَه وعملَه كُلَّه، حتى أَحْصَى هذا الأَثَرَ فِيما هُو مِن طاعةِ اللهِ أو مِن معصِيَتِه، فمَنِ اسْتَطاعَ مِنكُمْ أن يكتُبَ أثَرَهُ في طاعة الله، فليفعل".

المراجع:

❶المراجع: الأربعين النووية شرح الشيخ ابن عثيمين رحمه الله بتصرف.

❷إصلاح ذات البين (1): إبراهيم بن محمد الحقيل.

❸الكلمة الطيبة وحسن الكلام: فواز بن خلف الثبيتي.

❹المشي إلى الصلاة: سليمان بن خالد الحربي.

❺فضل إماطة الأذى عن الطريق: عمر بن عبد الله بن مشاري المشاري.